حديث:

«يأتي الشيطانُ أحدَكم ... فيقول: من خَلق الله؟!»

دراسة حديثية عقدية

إعداد

د. راشد صليهم فهد الصليهم الهاجري

مجلة وادي النيل للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية والتربوية

مجلة علمية محكمة (ISSN: 2536 – 9555).

العدد: التاسع عشر – يوليو ٢٠١٨م المجلد الثاني

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فإن الله ﷻ قد أحْكَمَ الخَلْقَ وأبدَعَه، وأسبغ على العالمين نِعمَه، فما من شيءٍ يحتاجُه الخَلْقُ إلا يسَّره أكثرَ من حاجتهم إليه، فالهواء أكثر من الماء، والماء أكثر من الطعام، وكلما زادت الحاجةُ زادَ اللهُ لهم ما هو أكثر من حاجتهم، يهتدي إليه من يهتدي، ويَضِل عنه من يضل، فلا يموت البَشرُ عطشًا بسبب قلَّة الماء في الأرض، ولا يموتون جوعًا لقلة الطعام فيها.

ومن فضل الله سبحانه أن هذه القاعدة ليست خاصة بالمحسوسات فحسب، بل كذلك الحال في العقليات والروحيات، فإن الله قد يسَّر سُبلها، وأدِلَّتها أكثر مما يحتاجه البشر، ولَمَّا كانت حاجة العباد إلى معرفة الله تعالى أشدَّ حاجةٍ؛ كان له في كلِّ شيء آية، تدلُّ على وحدانيَّته في الخلق والرَّزق والمُلك والتدبير، وجميع صفاتِ ربوبيَّته التي يلزم منها أن يكون سبحانه واحدًا في استحقاق العبادة والطاعة، والمتضمنة أن يكون حيًّا قيومًا قديرًا رحيمًا، رؤوفًا كريمًا عليمًا سميعًا بصيرًا.

وقد تواترت نصوص القرآن والسنة، بالأدلة الشرعية والعقلية، التي تدلُّ على وحدانية الله في ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته، والبعث بعد الموت، والقَدَر خيره وشره، وقد دلَّت كذلك على تصحيح التفكير، وصون العقل عن الخطأ في الاستدلال، بمنتهى الكمال العلمي، بعيدًا عن سفسطة فلاسفة اليونان، وهرطقات المستشرقين والمستغربين.

ولا يكمن الخلل والنَّقصُ إلا بالتقصير في تدبُّر النصوص الشرعية التي تُغني المُسلم عن الغلط السائد في عالم الأفكار الفلسفية التي مزَّقت العقول، وشتَّتت الأفكار، وأضعفَت الحقَّ، والتفكيرَ السليم، والتي لو كان الشرع مصدرها لحُلَّت جميع مشكلاتها المعرفية.

وهذه معالجة بحثية، لدراسةٍ متعلقة بحديثٍ نبوي شريف عظيم، دلَّ على أصل عظيم من أصول الإيمان، وسلامة التفكير، والتأصيل البديع لقاعدة عقلية مُسلَّمة، يدخل الشيطان على الإنسان من خلالها.

والشيطان عَدوُّ لبني آدم، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [سورة: فاطر، آية: ٦].

وإن من كيد الشيطان أنه لا يُباشر الدعوة إلى الضلال حتى يُهيئ لها الطُّرق والسُّبل، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٦٩﴾ [سورة: البقرة، آية: ١٦٨- ١٦٩].

قال الحافظ ابن كثير: "وقد أقسم [الشيطانُ] للوالد آدمَ: إنه لمن الناصحين؛ وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [سورة: ص، آية ٨٢- ٨٣]" (١).

فالشيطان لا يزال حاملًا لواءَ العداء لبني آدم، في دينهم ودنياهم، ومجاهدًا في بثِّ الشكوك والشبهات بكلِّ سبيلٍ وطريقٍ، فعن أم المؤمنين صفية زوج النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الشيطان يَبْلُغ من الإنسان مَبْلَغ الدَّم، وإني خشيت أن يَقْذِف في قلوبكما شيئًا**» (٢).

ومن كيد الشيطان وتشكيكه يأتي هذا الحديث من النبي ﷺ محذِّرًا أمتَه من هذا السؤال، وهو: من خلق الله؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فهذه السؤالات من شياطين الإنس والجن أَسْوِلَة معلومة الفساد في العقل، ولهذا أمر النبي ﷺ العبدَ إذا جاءته هذه المسائل أن يستعيذ بالله منها وينتهي، فإن الشيطان يُلقي إليه هذه المسائل ليشكِّكَه في الحق" (٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ١١٠).

(٢) رواه **البخاري في الصحيح**، كتاب فرض الخُمُس، باب: ما جاء في بيوت أزواج النبي ﷺ (٤/ ٨٢)؛ رقم: ٣١٠١.

(٣) بيان تلبيس الجهمية (٥/ ٢٧٧).

أهمية الموضوع:

إن الكلام على فقه سنة النبي ﷺ من أعظم القُرُبات إلى الله ﷻ، إذ شرفُ العِلم بشرف معلومه، وفِقْهُ كلامِ الله سبحانه، وسُنَّةِ رسوله ﷺ خير العلوم وأنفعها، بل هي أصل العلوم التي مدار بقية العلوم ومرجعها إليها، لا سيما وهذا الحديث دالٌّ على أمر من أمور الإيمان والاعتقاد في الله سبحانه وتعالى، فأهميته كبيرة جدًّا.

أسباب اختيار الموضوع:

إن العالم قد فُتح بعضُه على بعضه، بعد أن كان لا يتصدَّر للعلم -في الغالب- إلا أهلُه، صار التقوُّل في هذا الزمن على النبي ﷺ والتَّحكُّم في مقاصده، ومعاني سُنَّتِه في متناول الجميع، فهجم على الشرع من ليس من أهله، بل هجم عليه أعداؤه ممن لبس لباس الثقافة والبحث العلمي، وحمل شعار الحيادية والإنصاف، فخاض جهلًا أو خُبثًا في النصوص تحريفًا وتعطيلًا، ومن تلك الأحاديث التي طالتها ألْسُنُ وأقلام هؤلاء المتطفِّلين: هذا الحديث العظيم، فقالوا فيه جهلًا ما لم يُرِدْه النبيُّ ﷺ، ولا تحتمله لغته، ولا شريعته التي جاء بها، ولا فقه أصحابه، ولا فهم السلف من أتباعهم.

فعزمتُ مستعينًا بالله على المساهمة في تخريجه وبيان معناه، وفق ما أراد النبي ﷺ في ضوء فهم الصحابة والأئمة المحققين.

خطة البحث:

جعلت البحث على مقدمة، ومبحثين وخاتمة.

أما **المقدمة** فذكرت فيها أهمية البحث، وأسباب اختياره، وخطة البحث، ومنهج العمل فيه.

المبحث الأول: تخريج الحديث.

المبحث الثاني: فقه الحديث ودلالاته. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: دلالة: صفة السؤال، وقصد السائل.

المطلب الثاني: دلالة الاستدراج.

المطلب الثالث: دلالة السؤال: من خلق الله؟! والوقوع في الوسوسة.

المطلب الرابع: دلالة التوجيه النبوي في كيفية التعامل مع هذا السؤال.

ثم الخاتمة: وفيها ملخص البحث، وأهم النتائج.

ثم ثبت المصادر والمراجع.

ثم فهرس الموضوعات.

منهج البحث:

١. سلكت في بحثي المنهج الاستقرائي، والتحليلي.

٢. منهج تخريج حديث البحث: إذا كان الإسناد قد رواه البخاري ومسلم أو أحدهما أكتفي به تخريجًا وحُكمًا، إلا أن تكون زيادة في اللفظ والمعنى عند غيرهما فإني أذكرها.

٣. الأحاديث الأخرى -غير حديث البحث- والتي في أثناء الموضوع، أذكر من أخرجها تخريجًا مختصرًا فإن كان في غير الصحيحين أو أحدهما، بيَّنت درجته وفق منهج المحدثين.

٤. أجمع ألفاظ الحديث مراعيًا الفروقات بينها، وأبَيِّن دلالاتها.

٥. أشرح متن الحديث في ضوء فهم السلف والأئمة المحققين.

وأسأل الله الإعانة، والتوفيق، والسداد، والحمد لله وحده.

المبحث الأول: تخريج الحديث

١. **عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:**

«يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: مَن خلق كذا؟ مَن خلق كذا؟ حتى يقول: مَن خلق ربُّك؟! فإذا بَلَغَه فلْيَسْتَعِذْ بالله ولْيَنْتَهِ».

- رواه البخاري [١]، ومسلم [٢]، من طريق: الزهري عن عروة بن الزبير، عن أبي هريرة.
- ورواه مسلم [٣]، من طريق: هشام بن عروة [٤]، عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يزال الناسُ يتساءلون، حتَّى يُقال: هذا خَلَقَ اللهُ الخَلقَ؛ فمن خلق الله؟ فمن وَجَد من ذلك شيئًا فليقل: آمنت بالله».

وفي لفظٍ لمسلم [٥] أيضًا بمثل الإسناد السابق: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق السماء؟ من خلق الأرض؟ فيقول: الله...**» وفيه: «**فليقل: آمنت بالله ورسله**».

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، (٤/ ١٢٣)؛ رقم: ٣٢٧٦.

(٢) **صحيح مسلم**، كتاب: الإيمان، باب: بيان الوسوسة، وما يقول من وجدها، (١/ ٨٣- ٨٤)؛ رقم: ١٣٤.

(٣) **صحيح مسلم**، المصدر السابق

(٤) وروي عن هشام بن عروة عن أبيه من غير طريق أبي هريرة، ولا يصح، والمحفوظ هو حديث أبي هريرة، فعند أبي عوانة: "قالوا لسفيان: هو عن أبي هريرة؟ قال: نعم لا شك فيه". وقال أبو زرعة –عن الرواية من غير طريق أبي هريرة–: "وهو خطأ، والصحيح حديث ابن عيينة عن هشام عن أبيه، عن أبي هريرة".
انظر: مسند ابن أبي شيبة (١/ ٣٨)؛ رقم: ٢١. ومسند أحمد (٤٣/ ٢٧١)؛ ٢٦٢٠٣. ومنتخب مسند عبد بن حميد (ص: ١٠١)؛ رقم: ٢١٥. مستخرج أبي عوانة (١/ ٨٠)؛ رقم: ٢٣٧. علل الحديث لابن أبي حاتم (٥/ ٢٦٣)؛ رقم: ١٩٦٩.

(٥) **صحيح مسلم**، المصدر السابق.

- ورواه مسلمٌ -أيضًا- [١] وعبدالرزاق الصنعاني [٢]، من طريق: محمد بن سيرين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يزال الناسُ يسألونكم عن العلم، حتى يقولوا: هذا اللهُ خَلَقَنا؛ فمن خلق الله؟!».

قال أبو هريرة ﷺ -وهو آخذ بِيَد رجلٍ-: "صدق الله ورسوله، قد سألني اثنان، وهذا الثالث. أو قال: سألني واحدٌ وهذا الثاني".

قال عبدالرزاق -بعده- فكان معمر يَصِل في هذا الحديث فيقول: «**الله خلق كل شيء، وهو قبل كل شيء، وهو كائن بعد كل شيء**».

- ورواه مسلمٌ أيضًا [٣]، عن أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«لا يزالون يسألونك يا أبا هريرة! حتى يقولوا: هذا الله؛ فمن خلق الله؟!».

قال: فبينما أنا في المسجد إذ جاءني ناس من الأعراب فقالوا: يا أبا هريرة! هذا الله، فمن خلق الله؟! قال: فأخذ حصى بكفيه فرماهم، ثم قال: قوموا، قوموا صدق خليلي.

وعند أحمد [٤]، أن السائل من أهل العراق، وفيه: قال أبو هريرة: "فجعلت أصبعي في أذني، ثم صحت، فقلت: صدق الله ورسوله؛ الله الواحد الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد".

وعند أبي داود [٥]، والنسائي -في السنن الكبرى [٦]- وابن أبي عاصم [٧]، زيادة: «**ثم ليتفل عن يساره ثلاثًا، ولْيستعذ بالله من الشيطان**».

---

(١) **صحيح مسلم**، كتاب: الإيمان، باب: بيان الوسوسة، وما يقول من وجدها، (١/ ٨٤- ٨٥)؛ رقم: ١٣٥.

(٢) جامع معمر برواية عبدالرزاق الصنعاني، المصنف لعبدالرزاق (١١/ ٢٤٤)؛ رقم: ٢٠٤٤١.

(٣) **صحيح مسلم**، المصدر السابق.

(٤) مسند الإمام أحمد (١٥/ ١٠)؛ رقم: ٩٠٢٧.

(٥) سنن أبي داود كتاب السنة، باب: في الجهمية، (٧/ ١٠٤)؛ رقم: ٤٧٢٢.

(٦) السنن الكبرى للنسائي (٩/ ٢٤٥)؛ رقم: ١٠٤٢٢.

(٧) السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٩٤)؛ رقم: ٦٥٣.

- وكذلك رواه مسلم [١]، عن يزيد الأصم قال: سمعتُ أبا هريرة ﷺ يقول: قال النبي ﷺ:

«ليسألنَّكم الناسُ عن كُلِّ شيءٍ حتى يقولوا: اللهُ خلَقَ كلَّ شيءٍ؛ فمن خَلَقَه؟!».

- وعن همام بن منبه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تزالون تستفتون حتى يقول أحدكم: هذا الله خلق الخلق؛ فمن خلق الله ﷻ؟!».

رواه أحمد [٢]، وابن حبان [٣]، عن عبدالرزاق عن معمر، عن همام، به.

٢. عن أنس بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:

«لن يبرحَ الناسُ يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خالق كلُّ شيءٍ؛ فمن خلق الله؟!».

رواه البخاري [٤]، ومسلم [٥]، وأحمد [٦]، وهذا لفظ البخاري.

ولفظ مسلم، وأحمد: «**قال الله ﷻ إن أمتك لا يزالون يقولون: ما كذا؟ ما كذا؟ حتى يقولوا: هذا اللهُ خَلَقَ الخَلْقَ؛ فمن خلق الله؟!**».

ورواه ابن أبي عاصم [٧]، بزيادة: «**فعند ذلك يضلون**».

---

(١) **صحيح مسلم**، المصدر السابق.

(٢) مسند أحمد (١٣/ ٥٢٤)؛ رقم: ٨٢٠٧.

(٣) صحيح ابن حبان -الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان- (١٥/ ١١٧)؛ رقم: ٦٧٢٢.

(٤) **صحيح البخاري**، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: ما يُكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه، (٩/ ٩٦)؛ رقم: ٧٢٩٧.

(٥) **صحيح مسلم**، كتاب: الإيمان، باب: بيان الوسوسة، وما يقول من وجدها، (١/ ٨٥)؛ رقم: ١٣٥.

(٦) مسند أحمد (١٩/ ٥٤)؛ رقم: ١١٩٩٥.

(٧) السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٩٣)؛ رقم: ٦٤٧.

المبحث الثاني: فقه الحديث ودلالاته

إن النبي ﷺ قد أوتيَ جوامع الكَلِم، كما قال ﷺ: «**وأُوتيتُ جوامع الكَلِم**». **متفق عليه** [١]، ومعنى جوامع الكلم، أن يكون الكلام قليل المبنى وعظيم وكثير المعنى، ولا عجب في ذلك؛ إذِ السُّنَّة وحيٌ من الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤**﴾ [سورة: النجم، آية: ٢- ٣]. فكلُّ كلامه ﷺ له دلالاتٌ وفوائدُ عامةٌ وخاصةٌ، عَلِمَها من عَلِمَها، وجَهِلَها من جَهِلَها، وكلُّ كلمة لها اعتبارها الخاص، ومنها هذا الحديث النبوي العظيم.

وفي هذا الحديث بمختلف رواياته وألفاظه عناصرُ ودلالاتٌ رئيسيةٌ:

الدلالة الأولى: في صفة السؤال، وقصد السائل: وهي أن الشيطان يسأل العبدَ، والناسُ كذلك يتساءلون، والشياطين: إما شياطين الإنس، أو شياطين الجن [٢].

الدلالة الثانية: الاستدراج: وفيه بيان طريقة استدراج الشيطان، وذلك بالسؤال عمَّا هو حق أولًا، ثم السؤال عمَّا هو باطل، تشكيكًا وتضليلًا.

الدلالة الثالثة: السؤال "من خلق الله؟!". والوقوع في الوسوسة: وفيها بيان الوقوع في المغالطة، والجرأة على سؤال: من خلق الله؟! الذي هو وقوعٌ في الوسواس والشرِّ الذي يوسوس به الشيطان بعد ذلك الاستدراج.

الدلالة الرابعة: التوجيه النبوي في كيفية التعامل مع هذا السؤال: وفيه بيان الطريقة الشرعية في التعامل مع هذا الوسواس، بخمسة توجيهات، وهي: الانتهاء، والاستعاذة، وقراءة سورة الإخلاص، وقول: آمنت بالله ورسله، والتفل عن اليسار ثلاثًا.

وعلى هذه العناصر الرئيسية يدور الحديث كله، فهو خبر عما سيقع، وبيان لصفته، وتحذير من سؤاله، وتحذير من استدراجه، وبيان الطريقة الصحيحة في التعامل معه.

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب التعبير، باب: المفاتيح في اليد (٩/ ٣٦)؛ رقم: ٧٠١٣. و**صحيح مسلم** كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، (٢ /٦٤) رقم: ٥٢٣.

(٢) انظر: فتح الباري (٦/ ٣٤١).

المطلب الأول: دلالة صفة السؤال، وقصد السائل

بيّن النبي ﷺ صفة السؤال، وقصد السائل في مجموع ألفاظ الحديث وهي:

«**يأتي الشيطانُ أحدَكم**». و «**لا يزال النَّاس يتساءلون، حتَّى يُقال..**». و «**لا يزال الناس يسألونكم عن العلم، حتى يقولوا..**». و «**لا يزال الناس يسألونك يا أبا هريرة**». و«**ليسألنكم الناس عن كلِّ شيء حتى يقولوا..**». و «**لا تزالون تُستَفتَوْن حتى يقول أحدكم..**». و «**لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا..**». و «**إن أمتك لا يزالون يقولون..**».

أما صفة السائل: فقد دل الحديث على أن منشأ السؤال تارة يأتي على هيئة وسوسة نفسية من الشيطان، وتارة يقوم بعض شياطين الإنس بهذه المهمة فيورد مثل هذا السؤال [١]، فالسؤال يطرأ على الإنسان في صِفَتَين: **الأولى:** أن يكون فيما بينه وبين نفسه فتحدِّثه نفسه وتوسوس له بهذا السؤال. **والثانية:** أن يسأله من يريد أن يُضلَّه بالتشكيك والمغالطة [٢].

وأما قصد السائل: ففي ألفاظ الحديث دلالات تُبيِّنُ مَوْرِد السؤال وقصد السائل، ويرجع مُجملها إلى ثلاثة مَوَارد أساسية:

المَوْرِد الأول: أن يكون ورود هذا السؤال من كيدِ شياطين الإنس والجن ووسوستهم، وسوء قصدهم وإرادة إضلالهم للإنسان وتشكيكه في دينه، وذلك في قوله: «**يأتي الشيطانُ أحدكم**».

فعبَّر ﷺ بكونه "شيطانًا" قاصدًا التحذير منه، وأن هذا الصنف ممن لم يُرِد إلا السُّوء والإضلال.

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٣٤١).

(٢) قال الملا علي القاري: "والتساؤل جريان السؤال بين الاثنين فصاعدًا، ويجوز أن يكون بين العبد، والشيطان، أو النفس، أو إنسان آخر". مرقاة المفاتيح (١/ ١٣٨).

والمورد الثاني: أن يُورِد السؤال على سبيل التكلُّف والتَّنطُّع، وذلك في قوله: «**ليسألنَّكم الناسُ عن كلِّ شيءٍ**» وقوله: «**لن يبرح الناس يتساءلون**». ولذلك جاء التعبير من النبي ﷺ بلفظ: «**ليسألنكم الناس**». بخلاف الأول فإنه ذكر فيه الشيطان.

وبين ﷺ أن سؤالهم كان بقصد التكلُّف لأنهم يسألون عن كلَّ شيءٍ، حتى أوقعهم تكلُّفهم في المغالطة. وقد أورد الهروي الحديثَ تحت باب "كراهية التنطُّع في الدين، والتكلُّف فيه، والبحث عن الحقائق وإيجاب التسليم" (١).

المورد الثالث: أن يورد السؤال على سبيل الاستفتاء وطلب المعرفة، ويشير إليه قوله ﷺ: «**لا يزال الناس يسألونكم عن العلم**». و «**لا تزالون تستفتون**». ولذلك عبَّر ﷺ بقصدهم في السؤال وهو سؤالهم: «**عن العلم**». وبيان حالهم أنهم يستفتون، وعامة من يقع في هذا هم من قلَّ علمه، وجهل الدلالات الشرعية واللغوية، فلذلك سأل هذا السؤال ظنًّا منه أنه سؤال صحيح!

ولعل الذين سألوا أبا هريرة ﷺ عامتهم كانوا من القسمين الأول والثاني، لأن أبا هريرة ﷺ جعل أصبعه في أذنيه، وصاح بهم، وأخذ الحصى فرماهم به، وطردهم بقوله: "قوموا".

وإخبار النبي ﷺ عن وقوع هذا الأمر لأبي هريرة ﷺ، وللناس عامة، وتحقُّق وقوعه له وللناس بعده فيه دلالة من دلالات نبوته ﷺ، وقد بوَّب عليه الهروي بقوله: "ذكر أشياء ... ظهرت على عهد رسول الله ﷺ" (٢).

---

(١) ذم الكلام وأهله (٣/ ١٤٣).

(٢) ذم الكلام وأهله (٤/ ٩٢).

المطلب الثاني: دلالة الاستدراج

بين النبي ﷺ أن السائل الذي سبقت صفتُه، لا يُباشر المسؤول بالسؤال الخاطئ، وإنما يستدرجه خُطوةً خُطوة، ثم يُوقِعُه في الغلط، وذلك في قوله:

«**من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربُّك؟!**». و «**هذا خَلَقَ اللهُ الخَلقَ؛ فمن خلق الله؟**». و «**من خلق السماء؟ من خلق الأرض؟**». و «**هذا اللهُ خَلَقَنا؛ فمن خلق الله؟!**». و «**اللهُ خلَقَ كلَّ شيءٍ؛ فمن خَلَقَه؟!**».

يُبين النبي ﷺ أن الشيطان يستدرج الإنسان بسؤاله، فيبدأ بأسئلة لا تُنكر أجوبَتُها، وهي بدهية فطرية فيقول: من خلق السماوات؟ ومن خلق الأرض؟ ولا يرتاب من له أدنى عقلٌ أن الله خالق كل شيءٍ، وما من مخلوقٍ إلا وله خالق، وأن وجودَ مخلوقٍ من غير خالقٍ أمرٌ مستحيلٌ في الشرع والفطرة والعقل، وكل مخلوقٍ لا بد له من خالق.

فإذا تقرر هذا المعنى البديهي في النفس، وهو أن كلَّ مخلوق له خالق، وخالقه هو الله سبحانه؛ هجم الشيطانُ على الإنسان بمغالطة عقلية تُفضي به إلى الوسوسة وهي أن يسأله: من خلق الله الذي خلق كل شيء؟!

فإذا بلغ هذا السؤال، وصل الشيطان إلى غايته في التشكيك، وإيقاع الإنسان في الوسوسة.

قال الصنعاني: "تَدَرَّج من الحق إلى الباطل، وفيه دليل أن مِن شأن المُبطِل أن يَلبِسَ الحقَّ بالباطل، وأنه يستدرج العبد فيأتيه بما يعرفه، ثم يأتيه بما لا يعرفه، ليوقعه في المَحَارة" [١].

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني (٣/ ٤٩٠).

المطلب الثالث: دلالة السؤال: "من خلق الله؟!" والوقوع في الوسوسة

بعد ما سبق من الاستدراج وصل الشيطان إلى مراده، وذلك أنه أدخل عقل الإنسان في متاهة الغلط العقلي الذي لو فكَّر قليلا وهو مستعينٌ بالله لَعَلِمَ أن السؤال ينقض نفسَه بنفسِه، وذلك أنه في سؤاله قد أقرَّ بأن الله خالق، ثم نقض هذا الإقرار بوصف الله بأنه مخلوق! فذهب يتطلَّب له خالقًا!!

فهذا السؤال تمامًا كمن يقول: من الذي خلق الذي لا خالق له؟! أو من الذي قَبْل الذي ليس قَبْله شيء؟!

فالسؤال عين الغلط المنطقي العقلي.

قال ابن سعدي: "هذا سؤالٌ باطلٌ شرعًا وعقلًا، وهو من باب المكابرة والمباهتة؛ لأنه تعالى واجب الوجود، ووجود كل شيء بإيجاده" (١).

ولما كان هذا السؤال سؤالاً خاطئًا، وغلطًا عقليًّا؛ كان مجرد التفكير فيه والاسترسال معه من الوسوسة الشيطانية التي يجب الكفُّ عنها، ولذلك أمر النبي ﷺ بالكف والانتهاء.

مزيد تفصيل لبيان كون السؤال خطأ عقليًّا وأنه محض وسوسةٍ:

قبل ذلك لابد أن يُعلم أن الأسئلة المغلوطة هي التي ليس لها حقيقة معرفية، ولا صحة لها عقلاً ولا فطرةً، كمن يسأل: كم وزن درجة الحرارة؟ وكم طول الضلع الرابع للمثلث؟ والنملة إذا ولدت فيلاً فكم عينًا له؟ وهكذا مما لا يصح أن يَسأل عنه عاقل أصلاً.

وتَطَلُّبُ البحث عن خالق للخالق هو من قبيل هذا الغلط بل هو أشدُّ! وذلك أنه لا خلاف بين كل العقلاء أنه لا يمكن أن يكون هناك مخلوقٌ من غير خالقٍ، ولابد أن يكون هذا الخالق غير مخلوق (٢).

---

(١) الدرة البهية في شرح القصيدة التائية للشيخ عبدالرحمن ابن سعدي (ص: ٤٠).

(٢) انظر: معيار العلم للغزالي (ص: ١١٠- ١١١). والرد على المنطقيين لابن تيمية (ص: ١٥٦ و٢٥٣).

فالخالق لابد أن يكون غير مخلوق، وتطلُّب خالقٍ للخالق هو تطلُّبٌ للتسلسل في الفاعلين، والتسلسل في الفاعلين ممتنعٌ عقلًا، ولذلك هذا السؤال يُشبه تمامًا من يقول: من خبز الخبزة؟ فإذا قيل: الخباز. قال: ومن خبز الخباز؟! وكذلك من أطفأ المصباح؟ فإن قيل: فلان. قال: من أطفأ فلانًا؟!

فسؤال: من خلق الله؟! هو تمامًا كمن يقول: من خلق الذي لا خالق له؟!

وإن إقرار العبد بأن الله ﷻ خالق كل شيءٍ هو إقرارٌ بأنه أوَّلٌ ليس قبله شيء، لأن الخالق لابد أن يكون أوّلًا ليس قبله شيءٌ، ولذلك إن لم يوجد خالقٌ أوُّلٌ ليس بمخلوق، فإن المخلوق لن يكون موجودًا أصلًا (١).

وعلى هذا فلو تم الاسترسال مع أسئلة الشيطان، من خلق الخالق؟ فإن السلسلة لن تنتهيَ إلى هذا الحد! فسيسأل سؤالا بعده وهو: من خَلَقَ خالقَ الخالقِ؟! ثم: من خَلَقَ خالقَ خالقِ الخالقِ؟ وهكذا سلسلة لا نهاية لها إلا بخالقٍ أوَّلٍ ليس قبله شيء.

قال ابن تيمية: "ومعلومٌ أن المُحدَث الواحد لا يَحدُثُ إلا بمُحدِث، فإذا كثرت الحوادث وتسلسلت كان احتياجها إلى المُحدِث أولى، وكلها محدثات فكلها محتاجة إلى محدِث، وذلك لا يزول إلا بمحدِث لا يحتاج إلى غيره، بل هو قديمٌ أزليٌّ بنفسه ﷻ وإذا قيل: إن الموجود إما قديم وإما مُحدَث والمُحدَث لا بد له من قديم، فيلزم وجود القديم على التقديرين؛ كان برهانًا صحيحًا" (٢).

وبذلك يتبيَّن أن من أقرَّ بأن السماوات مخلوقة، والأرض مخلوقة، والكون مخلوق، وأن الخالق هو الله ﷻ، فإن سؤاله من خلق الله؟! هو نقض لإقراره السابق، حيث جعل اللهَ مخلوقًا

---

(١) انظر: إكمال المعلم للقاضي عياض (١/ ٤٣٠).

ومن الأمثلة التي شاع استعمالها لبيان هذه الحقيقة، مثال "الجندي"، فلو افترضنا وجود مجرم قد تم الحكم عليه بالإعدام، فوقف الجندي المُكلَّف بإعدامه وقيل له لا تطلق الرصاصة حتى يأمرك القائد الأعلى منك رتبةً، وقيل للقائد الأعلى منه لا تأمره حتى يأمرك من هو أعلى منك، وهكذا استمر التسلسل فلن يُنفَّذ الأمر أبدًا إلا بعد أن يصدر الأمر عن قائد أعلى لا أحد فوقه، فلابد للتسلسل أن ينقطع، إلا فإن الفعل لن يُنفَّذ، فإذا أطلق الجندي الرصاصة علمنا أن التسلسل قد انقطع، وكذلك لما رأينا المخلوقات علمنا أن لها خالقًا غير مخلوق.

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٤٥).

كسائر المخلوقات التي يَتطلَّب لها خالقًا، وهذا ممتنع عقلاً؛ إذ ستسير السلسلة في الفاعلين إلى ما لا نهاية [١].

قال الوزير ابن هُبَيْرَة: "فأما الذين يعقِلون عن الله ﷻ، فإنهم يحمون قلوبهم من ذلك التسلسل الذي إذا انتهى إلى الغاية القصوى فيه رجع إلى أول قِدَم؛ فكان الطارد للوسواس هو قوله: ﴿**ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ**﴾. هو الذي يطرد هذا الوسواس عن أن يخطر فيها من **الكلام الذي ينتقض فرعُه بانتقاض أصلِه**" [٢].

فمن فهم هذا، ثم جادل في مبدأِ السببية، فهو مجادل في أمر بدهي وفطري، ومبدأ السببية مبدأ عقلي فطري قال ابن تيمية: "هذه القضية ... فطرية بديهية مستقرة في النفوس لا يمكن أحدًا إنكارها، فلا يمكن صحيحَ الفطرة أن يدعي وجود حادثٍ بدون محدثٍ أحدثه" [٣].

فمن شكَّ في الأمور الفطرية العقلية وتطلَّب لها أدلةً وبراهين فقد وقع في **الوسوسة الشيطانية**، وذلك أنَّ الشَّك في البدهيات العقلية والأمور الفطرية لا يصدر عن عاقلٍ مدركٍ، إذ هي بُرهان بذاتها، بل منتهى البرهان إليها؛ فتطلُّب البرهان على البرهان أمرٌ مستحيل! كمن يقول: أثبت لي أن عينك ترى السماء زرقاء!

قال ابن تيمية -مُوضِّحًا-: "البرهان الذي يُنال بالنظر فيه العلمَ لا بد أن ينتهي إلى مقدمات ضرورية فطرية، فإنَّ كُلَّ علمٍ ليس بضروري لا بد أن ينتهي إلى علمٍ ضروري، إذ المقدمات النظرية لو أُثبتت بمقدماتٍ نظريةٍ دائمًا لزم الدَّور القَبلي، أو التسلسل في المؤثرات في محلٍّ له ابتداءٌ، وكلاهما باطلٌ بالضرورة واتفاق العقلاء، **والشبهات القادحة في تلك العلوم لا يمكن الجواب عنها بالبرهان لأن غاية البرهان أن ينتهي إليها**، فإذا وقع الشك فيها انقطع طريق النظر والبحث؛ ولهذا كان من أنكر العلوم الحسية والضرورية لم يُنَاظَر، بل إذا كان جاحدًا

---

(١) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (٣/ ٢٦٨). والإفصاح عن معاني الصحاح للوزير ابن هُبيرة (٥/ ٢٥٠). والتوضيح في شرح الجامع الصحيح ابن الملقن (١٩/ ٢٠٠).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح للوزير ابن هُبيرة (٦/ ٢٢٩).

(٣) الرد على المنطقيين (ص: ٢٥٣).

معاندًا عوقب حتى يعترف بالحق، وإن كان غالطًا إما لفسادٍ عَرَضَ لحِسِّه أو عَقْله لعجزه عن فهم تلك العلوم، وإما لنحو ذلك، فإنه يُعالج بما يوجب حصولَ شروطِ العلم له، وانتفاءَ موانعه، فإن عجز عن ذلك لفسادٍ في طبيعته عُولج بالأدوية الطبيعية، أو بالدعاء والرقية والتوجُّه ونحو ذلك، وإلا تُرِك. ... وإذا تبين هذا فالوسوسة والشبهة القادحة في العلوم الضرورية لا تُزال بالبرهان، بل متى فَكَّر العبد ونَظَر ازداد ورودها على قلبه، وقد يغلبه الوسواسُ حتى يعجز عن دفعه عن نفسه، كما يعجز عن حلِّ الشبهة السوفسطائية، وهذا يزول بالاستعاذة بالله، فإن الله هو الذي يعيذ العبد ويجيره من الشبهات المضلة والشهوات المُغوية" (١).

فذلك إنما يقع وسوسة وتشكيكًا، والوسوسة قد تكون مرضًا مزمنًا مُطبِقًا عند بعض الناس، وقد تكون وسوسة جزئية كمن يُبتلى بالوسوسة في الوضوء والطهارة.

فمن رأى الشمس مشرقةً أمامه يقينًا، ثم شك في أنها مشرقة، فهو في الحقيقة موسوس، ومن هذا حاله لا يمكن أن يُقنَع بالبراهين والأدلة، وإنما علاجه طرد الوسواس بالانتهاء عنه والاستعاذة، ونحو ذلك: الوسوسة في الوضوء والغسل، فإنه لا يُمكن أن يُتطلَّب الدليلُ والبرهانُ على شيء رآه بعينيه وفعله بيديه، وهو في نفس الوقت يشكُّ به، إلا أن تكون وسوسة يجب الكفُّ عنها والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، وهذا عام في كل الأمور الحسية والعقلية (٢).

قال الخطابي: "وجه الحديث ومعناه ترك الفكر فيما يخطر بالقلب من وساوس الشيطان، والامتناع من قبولها، واللِّياذ بالله ﷻ في الاستعاذة منه، والكف عن مجاراتِه في حديث النفس، ومطاولتِه في المحاجة والمناظرة، والاشتغالِ بالجواب على ما يوجبه حقُّ النظر في مثله لو كان المناظر عليه بشرًا وكلمك في مثل هاكَ، فإنَّ من ناظرك وتسمع كلامه ويسمع كلامك لا يمكنه أن يغالطك فيما يجري بينكما من الكلام حتى يُخرجك من حدود النظر ورسوم الجَدَل، فإنَّ باب السؤال والجواب وما يجري فيه من المعارضة والمناقضة معلومٌ، والأمر فيه محدودٌ محصورٌ، فإذا رَعَيت الطريقة وأصبت الحجة وألزمتها خصمك انقطع، وكُفيتَ مؤنته وحَسمتَ شَغَبَه، وبابُ ما يوسوس به الشيطان إليك غير محدود ولا مُتَنَاهٍ، لأنك كُلَّما ألزمته حجة وأفسدت

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/ ٣٠٩- ٣١١).

(٢) انظر: شرح المشكاة للطيبي (٢/ ٥١٩).

عليه مذهبًا؛ راغ إلى نوع آخر من الوساوس التي أُعطي التسليط فيها عليك، فهو لا يزال يوسوس إليك حتى يؤدِّيك إلى الحيرة والضلال، فأرشد النبيُّ ﷺ عندما يَعرِض من وساوسه في هذ الباب إلى الاستعاذة بالله من شَرِّه والانتهاء، عن مراجعته، وحسم الباب فيه بالإعراض عنه، والاستعاذة بذكر الله، والاشتغال بأمرٍ سواه، وهذه حيلة بليغة وجُنَّة حصينة يحزى معها الشيطان ويبطل كيده" (١).

الوقوع في الوسوسة: إن الله سبحانه قد امتن على عباده بحفظ الدين، فدين الله هو الدين الحق باقٍ إلى يوم القيمة، وحجته صافية ظاهرة للعباد لا تلتبس على أحد، قال النبي ﷺ: «**قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**» رواه ابن ماجه (٢)، وأحمد (٣)، والحاكم (٤) **وإسناده صحيح.**

ولذا فقد حفظ الله الدين، ولم يجعل لمُعارضِه حجةً مهما اجتهد وجادل، وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني أُحَدِّث نفسي بالشيء، لأن أَخِرَّ من السماء أحبُّ إِلَيَّ مِن أن أتكلَّم به. فقال ﷺ «**الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رَدَّ كَيدَه إلى الوسوسة**». رواه أبو داود (٥)، وأحمد (٦)، **وإسناده صحيح.**

فالنبي ﷺ كَبَّر وحَمِد الله سبحانه لأن الشيطان لا يأتي بحجة شرعية ولا عقلية يَصلح أن تكون شبهة مؤثِّرة، فلما لم يستطع ذلك ولن يستطيع، ردَّ الله كيده إلى الوسوسة والخَطَرات التي لا تَلْبث أن تتبعثر متى ما نُظِرَ إليها وفُحِصَت بمنظار الشرع والعقل.

---

(١) أعلام الحديث للخطَّابي (٣/ ١٥١١- ١٥١٤)

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب: أبواب السنة، باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (١/ ٢٩)؛ رقم: ٤٣.

(٣) مسند أحمد (٢٨/ ٣٦٧)؛ رقم: ١٧١٤٢.

(٤) المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ١٧٥)؛ رقم: ٣٣١.

(٥) سنن أبي داود، كتاب: أبواب النوم، باب: في ردِّ الوسوسة. (٧/ ٤٣٥)؛ رقم: ٥١١٢.

(٦) مسند أحمد (٤/ ١٠)؛ رقم: ٢٠٩٧.

المطلب الرابع: دلالة التوجيه النبوي في كيفية التعامل مع هذا السؤال

جاء الجواب من النبي ﷺ جوابًا شافيًا كافيًا، متضمِّنًا خمسة توجيهات نبوية:

الأول: الأمر بالانتهاء، وقطع هذا التفكير.

والثاني: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

الثالث: أن يقول: " الله الواحد الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد".

الرابع: أن يقول: "آمنت بالله" وفي رواية: "آمنت بالله ورُسُله".

الخامس: أن يتفل عن يساره ثلاثًا.

فهذه خمسة أمور دلَّ عليها جواب النبي ﷺ؛ وقد بوَّب أبو عوانة على هذا الحديث بقوله: "بيان المسألة المكروهة التي لا يجوز السؤال عنها وعن رد جوابها، والدليل على إيجاب ترك التفكر فيها وإنها من سؤال الشيطان **وما يجب أن يقول المسؤول عنها أو من يجدها في نفسه**" (١).

وتوجيه النبي ﷺ هو العلاج الصحيح لهذه الوسوسة؛ قال الألباني: "وهذا التعليم النبوي الكريم أنفع وأقطع للوسوسة من المجادلة العقلية في هذه القضية، فإن المجادلة قلَّما تنفع في مثلها، ومن المؤسف أنَّ أكثرَ الناس في غفلة عن هذا التعليم النبوي الكريم، فتنبَّهوا أيها المسلمون، وتعرَّفوا إلى سنة نبيكم، واعملوا بها، فإن فيها شفاءكم وعزكم" (٢).

---

(١) مستخرج أبي عوانة (١/ ٨٠)؛ رقم: ٢٣٧.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (١/ ٢٣٦)؛ رقم: ١١٨.

فالتوجيه النبوي الأول هو: الأمر بالانتهاء.

أمر النبي ﷺ بالكف والانتهاء وقطع هذا التفكير.

وقد زلَّت بعض الأفهام في العلة من الأمر بالانتهاء والقطع، وعدم المحاجَّة والنظر، حتى توهم بعضهم أن الانتهاء سببه الحيرة، وعجز العقل عن فهم الجواب! وما جاء هذا الزعم إلا بسبب الجهل، والضلال في فهم كلام النبي ﷺ، فإن هذا الانتهاء ليس لحيرة العقل أو لعجزه عن الجواب الجدلي (١)، وإنما الانتهاء والكفُّ في مثل هذا الموضع هو الجواب المنطقي الصحيح لهذا السؤال، لأن السؤال من حيث الأصل سؤال خاطئ، وهو تمامًا كمن يقول: من خلق الذي لا خالق له؟!!

قال ابن تيمية: "النبي ﷺ أمر بطريقة البرهان حيث يُؤمَر بها، ودل على مجاميع البراهين التي يَرجِع إليها غايةُ نَظَر النُّظَّار، ودلَّ من البراهين على ما هو فوق استنباط النُّظَّار، والذي أمر به في دفع هذا الوسواس ليس هو الاستعاذة فقط، بل أمر بالإيمان وأمر بالاستعاذة وأمر بالانتهاء، ولا طريق إلى نيل المطلوب من النجاة والسعادة إلا بما أمر به لا طريق غير ذلك" (٢). ثم ذكر تفصيلًا بديعًا، وتوجيهًا شافيًا كافيًا للأمر بالانتهاء.

قال ابن حبان: " ذِكر الإخبار عن خوض الناس في **الأغلوطات** من المسائل التي أُغضي لهم عنها" (٣).

فالاسترسال مع الشيطان في هذا السؤال هو استرسال في وسوسة ومغالطة عقلية، لا يسترسل معها عاقلٌ، فبذلك يُعلم أنه يجب أن ينتهي عنها ويتوقف (٤).

وهذا ما فهمه أئمة السلف من هذا الحديث، وتواتر كلامهم في شرحه وبيانه.

قال الخطابي: "ولو أراد النبي ﷺ محاجته وأَذِن في مراجعته والرد عليه فيما يوسوس به لكان الأمر على كلِّ مُوَحِّدٍ سهلًا في قَمْعِه وإبطالِ قوله، فإنه لو يُقَدَّر أن يكون السائل عن

---

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطَّال (١٠/ ٣٤٣).

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٣/ ٣٠٨- ٣٠٩).

(٣) صحيح ابن حبان (١٥/ ١١٧)؛ رقم الحديث: ٦٧٢٢.

(٤) انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي (١/ ٢٩٠).

مثل هذا واحدًا من البشر لكان جوابه والنقض عليه متلقى من سؤاله، ومأخوذًا من فحوى كلامه؛ وذلك أنه إذا قال: هذا الله خلق؛ فمن الذي خلقه؟ فقد نقض بأوَّلِ كلامِه آخرَه، وأعطى أنْ لا شيءَ يُتَوهم دخوله تحت هذه الصفة من مَلَكٍ وإنسٍ وجنٍّ ونوع من أنواع الحيوان الذي يتأتى منه فعلٌ، لأن جميع ذلك واقع تحت اسم الخلق، فلم يبق للمطالبة مع هذا محل ولا قرار؛ وأيضا فلو جاز على هذه المقدمة أن يسأل فيقال من خلق الله؟ فيُسَمَّى شيءٌ من الأشياء يُدَّعى له هذا الوصف للزم أن يقال: ومن خلق ذلك الشيء؟! ولامْتَدّ القول في ذلك إلى مالا يتناهى، والقول بما لا يتناهى فاسدٌ، فسقط السؤال من أصله... **فإذن ننتهي إلى ما أُمِرنا به من حَسْم هذا الباب في مناظرة الشيطان؛ لجهله وقِلَّة إنصافه وكثرة شغبه، وقد تواصى الحكماء فيما دونوه ورسموه من حدود الجدل وآداب النظر بترك مناظرة من هذا صفته، وأمروا بالسكوت والإعراض عنه**" (١).

ووضَّح ابن تيمية أن الانتهاء هو الطريقة المُثلى عقلًا في مثل هذه المغالطة، فقال: "الطريقة الشرعية تتضمن الخبر بالحق، والتعريف بالطرق الموصلة إليه النافعة للخلق، وأما الكلام على كلِّ ما يَخطُر بِبالِ كلِّ أحدٍ من الناس من الشبهات السوفسطائية؛ فهذا لا يمكن أن يُبَيِّنَه خطابٌ على وجه التفصيل، والعلوم الفطرية الضرورية حاصلةٌ مع صحة الفطرة وسلامتها، وقد يعرض للفطرة ما يُفسدها ويُمرضها فترى الحقَّ باطلاً، كما في البدن إذا فسد أو مرض فإنه يجدُ الحلوَ مُراً، ويرى الواحد اثنين، فهذا يُعالَج بما يُزيل مرضَه، والقرآنُ فيه شفاءٌ لما في الصدور من الأمراض، **والنبي ﷺ عَلِمَ أن وسواس التسلسل في الفاعل يقع في النفوس، وأنه معلوم الفساد بالضرورة، فأمر عند وروده بالاستعاذة بالله منه والانتهاء عنه**" (٢).

وقال ابن سعدي: "وأَمَرَه: أن ينتهي، وأن يَعلَم: أن هذا سؤال **باطل شرعًا وعقلًا**، وهو من باب المكابرة والمباهتة؛ لأنه تعالى واجب الوجود، ووجود كلِّ شيءٍ بإيجاده" (٣).

---

(١) أعلام الحديث للخطَّابي (٣/ ١٥١١- ١٥١٤)

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٠٦).

(٣) الدرة البهية في شرح التائية (ص: ٤٠).

فالله ﷻ أوَّلٌ ليس قبله شيء، خالقٌ غيرُ مخلوق ﷻ، وقد روى هذا الحديث ابنُ الجوزي وذكره تحت باب: "أن الله تعالى قديم [١]" [٢].

قال بدر الدين العيني الحنفي: "«**ولينته**». أي: عن الاسترسال معه في ذلك بإثبات البراهين القاطعة الحقَّانية، على أن لا خالق له بإبطال التسلسل" [٣].

فالانتهاء والقطع أبلغ من النَّظَر والجدل، وقد يُحتاج للنظر في بعض الأحوال، مثل: اختلال الفطرة وزعزعتها؛ قال ابن عثيمين: "فإذا وَجَدَ الإنسان في إيمانه ضعفًا حينئذٍ يجب أن يَنْظُر، ولكن لا ينظر من زاوية الجدل والمعارضات والإيرادات؛ لأنه إن نظر من هذه الزاوية يكون مآله الضياع والهلاك، ويُورِد عليه الشيطان من الإشكالات والإيرادات ما يقف معها حيران؛ لكن ينظر من زاوية الوصول إلى الحقيقة، فمثلًا إذا نظر إلى الشمس -هذا المخلوق العظيم الكبير الوهَّاج- فلا يَقُل: من الذي خلقه؟ خلقه الله. فمن خلق الله؟ فهذا لا ينبغي، بل يقول: خلقه الله. ويقف؛ لأن الرسول ﷺ أمرنا أن ننتهي إذا قال لنا الشيطان: من خلق الله؟! لنقطع التسلسل، لأنك لو قلت من خلق الله؟ وقلت مثلا: خلقه شيءٌ ما، سيقول لك الشيطان: فمن خلق هذا الشيء؟ ثم تتسلسل إلى ما لا نهاية له، وتضيع في البحر الذي لا ساحل له، **فالحاصل أن النظر لا يحتاج إليه الإنسان إلا عند الضرورة كالدَّواء، فإذا ضَعُف إيمانه أو رأى من نفسه ضعفًا فلينظر، وإلا فمعرفة الله مركَّزة في الفِطَر**" [٤].

---

(١) القديم هو ما تقدم غيره، سواء كان مسبوقًا بعدم أم لم يكن مسبوقًا بعدم، ويُطلق ويُراد به الأول الذي ليس قبله شيء، وهو المراد إذا أُطلق صفة لله سبحانه، والتعبير بلفظ "الأول" كما هو نص القرآن والسنة أولى، وانظر تفصيل ذلك في: مجموع فتاوى ابن تيمية (١/ ٢٤٥)، (١٢/ ١٠٥).

(٢) العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (١/ ٣)؛ رقم: ١.

(٣) عمدة القاري (١٥/ ١٧٢).

(٤) شرح العقيدة السفارينية (ص: ١٥٠).

التوجيه النبوي الثاني: الأمر بالاستعاذة.

والاستعاذة هي: الالتجاء إلى الله والاستعاذة به من الشيطان الرجيم، فإن الشيطان يجتهد في محاولة إضلال بني آدم، وهذا من طُرُق الإضلال بل هو أخطرها حيث يهدف إلى هدم الدين والتوحيد، ولذلك ذكر البخاري هذا الحديث في باب: "صفة إبليس وجنوده".

قال ابن حجر العسقلاني: "ويستعيذ بالله إذا لم يَزُل عنه التفكر، والحكمة في ذلك: أن العلم باستغناء الله ﷻ عن كل ما يوسوسه الشيطان أمر ضروري لا يحتاج للاحتجاج والمناظرة، فإن وقع شيء من ذلك فهو من وسوسة الشيطان، وهي غير متناهية، فمهما عُورِض بحُجَّة يَجِد مسلكًا آخر من المغالطة والاسترسال، فيضيع الوقت إن سَلِم من فتنته، فلا تدبير في دفعه أقوى من الالتجاء إلى الله تعالى بالاستعاذة به" (١).

وقال بدر الدين العيني الحنفي: " ومعنى: فليستعذ، أي: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من الأعراض والشبهات الواهية الشيطانية" (٢).

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٢٧٣).

(٢) عمدة القاري (١٥/ ١٧٢).

التوجيه النبوي الثالث: أن يقول: "الله الواحد الصَّمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد".

وهذا التوجيه هو محتوى سورة الإخلاص، قال الله ﷻ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾.

ووجَّه النبي ﷺ بقراءة سورة الإخلاص لأنها تُبطِلُ هذه الوسوسة الشيطانية، فالله ﷻ واحدٌ، ليس قبله شيءٌ، خالق غير مخلوق سبحانه [١]، واحد في ربوبيته، وخلقه وملكه وتدبيره، وواحد في ألوهيته، فلا يستحق العبادة غيره سبحانه، ومن صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله فقد كفر، وواحدٌ في أسماءه الحسنى وصفاته العُلى، والصَّمد: هو الذي تصمد إليه الخلائق بحوائجها، فلا قاضي للحاجات ولا مدبر للكون إلا هو سبحانه، وهو مستلزم لإفراده بالعبادة وحده لا شريك له، ثم بين سبحانه أنه خالق وربٌّ ليس كالمخلوقات التي لها أصلٌ وفرع، فليس قبله شيء فهو لم يولد سبحانه وتعالى، وليس بعده شيء فهو لم يلد سبحانه، ثم بيَّن أنه لا مثيل له، ولا ند له ولا كفو له.

وهذا من بديع التوجيه النبوي، فسورة الإخلاص تقطع كلَّ التخيُّلات الباطلة، وتُبطل كل الخواطر الفاسدة.

---

(١) انظر: المفاتيح في شرح المصابيح للمظهري الحنفي (١/ ١٦٨).

التوجيه النبوي الرابع: أن يقول: آمنت بالله ورسله.

وهذا التوجيه من النبي ﷺ لدفع التوهم المُفضي إلى الكفر، ودفعُه يكون بالإقرار والإعلان بالإيمان بالله ورسله، إذ التصديق بصحة سؤال "من خلق الله؟!" إقرار بأن الله مخلوق، ﷻ عن هذا التفكير، وهذا كفرٌ وإلحادٌ وضلالٌ، فمقابلته بالإعلان والإظهار للإيمان والإقرار به مناسبٌ في هذا المقام (١).

قال ابن تيمية: "فهذا من باب دفع الضِّدِّ الضَّارِّ بالضِّدِّ النَّافع، فإن قولَه: "آمنت بالله". يدفع عن قلبه الوسواس الفاسد، ولهذا كان الشيطان يخنس عند ذكر الله، ويوسوس عند الغفلة عن ذكر الله، ولهذا سُمِّي الوسواس الخنَّاس، فإنه جاثمٌ على فؤاد ابن آدم فإن ذكر الله خَنَس، والخُنُوس الاختفاء بانخفاض، ولهذا سُمِّيت الكواكب الخُنَّس... فأمر النبي ﷺ العبد أن يقول: "آمنت بالله". أو "آمنت بالله ورسوله". فإن هذا القول إيمانٌ، وَذِكْرُ الله يَدفع به ما يُضاده من الوسوسة القادحة في العلوم الضرورية الفطرية... فيثبت على الحق ويَدفع ما يعارضه من الوسواس، فيرى الشيطان قوَّتَه وثباته على الحق، فيندفع عنه، وإلا فمتى رآه قابلًا للشُّكوك والشُّبهات، مستجيبًا إلى الوساوس والخطَرات، أَوْرَد عليه من ذلك ما يعجز عن دفعه، وصار قلبُه مَوردًا لما توحيه شياطين الإنس والجن من زُخرف القول، وانتقل من ذلك إلى غيره، إلى أن يسوقه الشيطان إلى الهَلَكة" (٢).

وقال ابن سعدي: "لأن الإيمان الصحيح يدفع هذه الشبهات؛ لعلم العبد المؤمن أنه تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، وأنه لا منتهى لأوليته، كما لا منتهى لآخرته" (٣).

---

(١) انظر: المفاتيح في شرح المصابيح للمظهري الحنفي (١/ ١٥٦).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣١٦- ٣١٨).

(٣) الدرة البهية في شرح التائية (ص: ٤٠).

التوجيه الخامس: أن يتفل عن يساره ثلاثًا.

"(التَّفل): إسقاطُ البُزاق من الفم، يعني: ليُلْقِ البُزاق من فمه ثلاثَ مرات، وإلقاءُ البزاق عبارةٌ عن كراهية الرَّجلِ الشَّيءَ وتقذُّرِه ونفورِ طَبعه عنه، كمن وَجَد جيفةً مُنتنةً؛ كَرِه ريحها، وتَفَل من نَتَنِها، يعني: ليتفل هذا الرجلُ ثلاثَ مراتٍ؛ ليعلم الشيطانُ أنه كَرِهَ هذه الوسوسة، ووجده قبيحًا؛ ليفرَّ الشيطان منه، ويعلمَ أنه ليس بمطيعٍ له" (١).

وبهذه التوجيهات النبوية العظيمة ينقطع الوسواس بإذن الله، ويمحو الله أثرَه، لمن عمل به مُستيقنًا بالله سبحانه.

---

(١) المفاتيح في شرح المصابيح للمظهري الحنفي (١/ ١٦٨).

الخاتمة

الحمدلله الذي بنعمته تتم الصالحات، تم هذا البحث بتوفيق الله سبحانه.

وقد انتظم البحث في أربعة أساسات حسب دلالات الحديث:

أولا: صفة السؤال وقصد السائل، وفيه ثلاثة موارد: الأول: أن يكون قصد السائل الإضلال والتشكيك، والثاني: أن يكون مورد السؤال من التكلف والتنطع، والثالث: أن يكون مورد السؤال مجرد العلم والمعرفة. ولما كان السؤال غلطًا فهو محرم مطلقًا مهما كان الدافع إليه.

ثانيًا: الاستدراج، فالشيطان يبدأ بالأسئلة التي لا تُنكر أولًا، ثم يستدرج بالعبد فيسترسل معه حتى يصل إلى هذا السؤال المغلوط.

ثالثًا: السؤال المغلوط، والوقوع في الوسوسة، وأن سؤال من خلق الله؟! هو تمامًا كسؤال: من خلق الذي لا خالق له؟! وأن هذا السؤال يُناقض نفسه، إذ أنه أقرَّ بأن الله هو الخالق، فتطلُّبه لخالق للخالق يُناقض إقراره أنه الخالق، وتصييره من خالق إلى مخلوق! وأن هذا أمر بدهي فطري، فمن شك في الأمور البديهية الفطرية فقد وقع في الوسوسة.

رابعًا: التوجيه النبوي العلمي المنهجي البرهاني، وهو:

الأول: الانتهاء، والانتهاء ليس عجزًا أو جهلًا، بل لأن الشك في الأمور الفطرية هو عَين الوسوسة، وجواب الوسوسة البرهاني العلمي هو الكفُّ عنها، والانتهاء من التفكير فيها لأنها غلط، فالأمر بالانتهاء هو صَونٌ للعقل عن الوقوع في الغلط المنطقي.

الثاني: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والالتجاء إلى الله بطلب العصمة من هذه الانحرافات والمغالطات.

الثالث: قراءة سورة الإخلاص، إذ هي صفة الرحمن، وفيها إثبات وحدانية الله وأنه الخالق الذي لم يلد ولم يولد سبحانه.

الرابع: أن يقول: "آمنت بالله ورسله". لأنه إعلان بالإيمان والتوحيد، فيكون الإعلان دفعًا للضدِّ بضدِّه.

الخامس: أن يتفل عن يساره ثلاثًا، لإعلان كراهيته لهذه الوسوسة والنفور منها.

وأسأل الله التوفيق والسداد، وحُسن القول والعمل، والحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

١. أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) لأبي سليمان الخطابي (ت: ٣٨٨هـ)؛ جامعة أم القرى ط١، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م، تحقيق: محمد بن سعد آل سعود.
٢. الإفصاح عن معاني الصِّحاح، للوزير ابن هُبيرة (ت: ٥٦٠هـ)؛ دار الوطن، ١٤١٧هـ، تحقيق: فؤاد عبدالمنعم أحمد.
٣. إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض (ت: ٥٤٤هـ)؛ دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، تحقيق: يحيى إسماعيل.
٤. بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية الحرَّاني الحنبلي (ت: ٧٢٨هـ)؛ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط١، ١٤٢٦هـ، تحقيق: مجموعة من المحققين.
٥. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)؛ دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، تحقيق: سامي بن محمد السلامة.
٦. التنوير شرح الجامع الصغير للأمير الصنعاني (ت: ١١٨٢هـ)؛ مكتبة دار السلام، الرياض، ط١، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، تحقيق: محمد إسحاق محمد إبراهيم.
٧. التوضيح في شرح الجامع الصحيح، لابن الملقن الشافعي (ت: ٨٠٤هـ)؛ دار النوادر، دمشق، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي، وتحقيق التراث.
٨. التيسير بشرح الجامع الصغير، لعبدالرؤوف المناوي (ت: ١٠٣١هـ)؛ مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط٣، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
٩. جامع معمر بن راشد (ت: ١٥٣هـ) (ضمن مصنف عبدالرزاق الصنعاني الجزء ١٠- ١١) المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.
١٠. درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)؛ جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، ط٢، ١٤١١هـ- ١٩٩١م، تحقيق: محمد رشاد سالم.
١١. الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت: ١٣٧٦هـ)؛ أضواء السلف، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، تحقيق: أشرف عبدالمقصود.
١٢. ذم الكلام وأهله، لأبي إسماعيل الهروي (ت: ٤٨١)؛ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، تحقيق: عبدالرحمن عبدالعزيز الشبل.
١٣. الرد على المنطقيين، لابن تيمية الحرَّاني الحنبلي (ت: ٧٢٨هـ)؛ دار المعرفة، بيروت.
١٤. سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني (ت: ١٤٢٠هـ)؛ مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

١٥. السنة لابن أبي عاصم (ت: ٢٨٧هـ)؛ المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.
١٦. سنن ابن ماجه القزويني (ت: ٢٧٣هـ)؛ دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون.
١٧. سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ)؛ دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد كامل قره بللي.
١٨. السنن الكبرى للنسائي أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب (ت: ٣٠٣هـ)؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، تحقيق: حسن عبدالمنعم شلبي، بإشراف شعيب الأرناؤوط.
١٩. شرح العقيدة السفارينية، لمحمد بن صالح بن عثيمين (ت: ١٤٢١هـ)؛ دار الوطن، الرياض، ١٤٢٦هـ.
٢٠. شرح المشكاة (الكاشف عن حقائق السنن) لشرف الدين الطيبي (ت: ٧٤٣هـ)؛ مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، تحقيق: عبدالحميد هنداوي.
٢١. شرح صحيح البخاري، لابن بطال (ت: ٤٤٩هـ)؛ مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم.
٢٢. صحيح ابن حبان -الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان- لأبي حاتم ابن حبان البستي (ت: ٣٥٤هـ)؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.
٢٣. صحيح البخاري، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ)؛ دار طوق النجاة "مصوَّرة عن السلطانية" ط١، ١٤٢٢هـ. اعتناء: محمد زهير الناصر.
٢٤. صحيح مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ دار طوق النجاة مصورة عن دار الطباعة العامرة، ط١، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٣م اعتناء محمد زهير الناصر
٢٥. علل الحديث لابن أبي حاتم (ت:٣٢٧هـ)؛ مطابع الحميضي، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م تحقيق: فريق من الباحثين بإشراف: سعد الحميّد، وخالد الجريسي.
٢٦. العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، لأبي الفرج بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)؛ إدارة العلوم الأثرية، باكستان، ط٢، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م تحقيق: إرشاد الحق الأثري.
٢٧. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني الحفني (ت: ٨٥٥هـ)؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٨. فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)؛ دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، إخراج وتصحيح: محب الدين الخطيب.

٢٩. كشف المشكل من حديث الصحيحين، لأبي الفرج ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)؛ دار الوطن، الرياض، تحقيق: علي حسين البواب.
٣٠. مجموع الفتاوى، لابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)؛ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.
٣١. مرقاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح، للملا علي القاري (ت: ١٠١٤هـ)؛ دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.
٣٢. مستخرج أبي عوانة الإسفرائيني (ت: ٣١٦هـ)؛ دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي.
٣٣. المستدرك على الصحيحين، لأبي عبدالله الحاكم (ت: ٤٠٥)؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا.
٣٤. مسند ابن أبي شيبة (ت: ٢٣٥هـ)؛ دار الوطن، الرياض، ط١، ١٩٩٧م، تحقيق: عادل العزازي، وأحمد المزيدي.
٣٥. مسند أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ)؛ مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل المرشد وآخرون بإشراف: د. عبدالله التركي.
٣٦. معيار العلم في فن المنطق، لأبي حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)؛ دار المعارف، مصر، ١٩٦١م، تحقيق: سليمان دنيا.
٣٧. المفاتيح في شرح المصابيح، للحسين المظهري (ت: ٧٢٧هـ)؛ دار النوادر، ووزارة الأوقاف الكويتية، ط١، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب.
٣٨. منتخب مسند عبد بن حميد (ت: ٢٤٩هـ)؛ مكتبة السنة، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، تحقيق: صبحي السامرائي، ومحمود الصعيدي.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٢

أهمية الموضوع: ٤

أسباب اختيار الموضوع: ٤

خطة البحث: ٤

منهج البحث: ٥

المبحث الأول: تخريج الحديث ٦

المبحث الثاني: فقه الحديث ودلالاته ٩

المطلب الأول: دلالة صفة السؤال، وقصد السائل ١٠

المطلب الثاني: دلالة الاستدراج ١٢

المطلب الثالث: دلالة السؤال: "من خلق الله؟!" والوقوع في الوسوسة ١٣

المطلب الرابع: دلالة التوجيه النبوي في كيفية التعامل مع هذا السؤال ١٨

الخاتمة ٢٦

ثبت المصادر والمراجع ٢٧

فهرس الموضوعات ٣٠